زهدي الداودي

أسطورة مملكة السيّد

منتدى اقرأ الثقافي
www.iqra.ahlamontada.com

دار سومر

مكتبة إقراء المتطورة
www.iqraa.ahlamontada.com
للكتب (كوردى ، عربي ، فارسي)

منتدى اقرأ الثقافي
---
www.iqra.ahlamontada.com

زهدى الداوودى

أسطورة مملكة السيد

زهدي الداودي

أسطورة مملكة السيد

قصة

دار سومر ١٩٩٠

SUMER VERLAG دار سومر

ISBN 3-910151-00-0

الكتاب : أسطورة مملكة السيّد
تأليف : زهدى الداوودى
الناشر: دار سومر
الطبعة الاولى : ١٩٩٠/٣٠٠٠ لايبزك/جمهورية ألمانيا الديمقراطية
جميع الحقوق محفوظة للناشر: دار سومر للتأليف والترجمة والطبع والنشر باللغتين العربية والألمانية .
SUMER VERLAG
LEIPZIG
Gesamtherstellung:
Druckerei „G. W. Leibniz" GmbH Gräfenhainichen
Printed in the German Democratic Republic

(١)

— لماذا يا ولدى ؟ لماذا ؟ . . هل فقدت عقلك ؟ . . ماذا كان سيحصل لوكنت جديدا على المهنة ؟ . . الم يكن الرعى مهنتك منذ صباك ؟ . .

قال ذلك الشيخ الذى اطلّ من وراء التل بظهره المقوّس ولحيته البيضاء وهو يتوكأ على عصاه . كان قويا ثابت الخطوات ، يبدو عليه العناد . وقف فى مكانه ملتقطا أنفاسه وهوينظر حواليه بحزن والم . وكان الغضب الكامن في اعماقه يحول دون ان يستكين .

وكان الراعي المتسمر فى مكانه قد نكس راسه ، يحدق في ظله الذى استطال بشكل غريب وامتدّ الى الجانب الثانى من الوادى ، خارقا اللون البرتقالى الذى غطّى كل شيء . وكان قرص الشمس الباهت يميل الى الغروب ، باعثا حوله كتلة من الالوان المتداخلة . كان يحس بطنين حاد يخرق رأسه ، قادما من مكان مجهول فى اعماقه ليعود مرةّ اخرى وينتشر في جسده المتعب الذى شعركما لوانه أصيب بالشلل . أراد ان يقول شيئا . أحسّ بالكلمات تخرج من اعماقه وتصل ببطء الى فمه ، ولكن اللسان كان يابى ان يحوّلها الى صوت مسموع ، فتتبدد كالفقاعات في داخله .

ولاحظ ان ظله يستطيل اكثر . . .

كان فى صغره يركض وراء ظله محاولا الامساك به وضاربا اياه بالعصا . وكانت اللعبة المفضلة لديه فى ليالي الشتاء هى الركض وراء ظله المتراقص على جدار الكوخ ، حيث جده يمسك بالفانوس من خلفه متنقلا به يمنة ويسرة الى ان يتعب ويلقى بنفسه فى حضن جده . ويمسد الجد راسه الصغير بيده المعروقة ويهمس فى اذنه بصوت متناغم دافيء حكاية من العصور الغابرة او يغنى له مقطعا من أغاني الرعاة يختتمها بنصيحة : « اذا وقعت من صهوة حصانك على الارض فلا تتأوه يا ولدى مثل جبان رعديد . اقفز على ظهر حصانك مهما كان ألمك شديدا . لا تتوان عن

فعل ذلك حتى اذا تحطمت ظلوعك او انكسرت رجلك . ان حصانك سيوصلك الى مكان امين ، انه لن يخونك . كل ما فى الامر هو ان تحسن قيادة . »

كان شروده يستطيل مثل ظله . اراد ان يرفع راسه ويلقى نظرة الى الشيخ ، ولكن الظل كان يشده الى الارض ثم أنه أحسّ ان الاثم اثقل من راسه .

أهكذا وبهذه السرعة ينسى الانسان نفسه ؟ كـان الظل يحفر فى مشـاعره مثل قطرات مطر نيسان التى تتوغل فى اعماق التربة . واحس بالحقد يزداد ويتكاثف في داخله متحولا الى سم قاتل يكاد يحرق دمه . وتنهد بعمق .

نغزه الشيخ بطرف عصاه ، قائلا بانفعال :

— أتراني اتكلم مع حجر؟ هل اصابك مسّ من الجنون ؟ أتريد ان اهشمّ راسك بضربة من عصاى حتى اعيد لك عقلك ؟ هه ؟ تكلم . .

. . . . احيانا ، سواء شاء الانسان ام ابى يتحول الى طفل ، فهل ان احساسا مثل هذا بدأ يجتاح مشاعره ؟ هل من الممكن ان تحتل اللاأبالية مكان الحقد وتخف وطأة ثقل الاثم من على راسه ، فيبدأ بالتفكير بصورة غير منفعلة ؟ كم جميلة هي الطفولة . وأحس بيد رقيقة تمسد له راسه وبالكلمات الدافئة المتناغمة تخرق حاجب الطنين في اذنه . . واغمض عينيه ، ولكنه سرعان ما فتحهما بعد ان تراءت له صورة المجزرة .

رفع راسه بهدؤ وقال بصوت كسير :

— ماذا تريدنى ان اقول ؟ لقد حصل ما حصل . . وماذا يجدى الكلام ؟

لم يستطع الشيخ ان يكبت غضبه الذى انفجر ، فراح يهزّ كتف الراعى بقوة كما لوانه يريد ان يبعث الحياة في جثة ميتة :

— أتقول ماذا يجدى الكلام ايها الابله ؟ فما الذى يجدى اذن ؟ تحجرك فى مكانك ؟ واكتئابك مثل ارملة يائسة ؟ هه ؟ . . ماذا يجدى اذن ؟

قال الراعى وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة مشرقة غيرّت ملامحه كلها فجأة :

— العمل . . العمل يا شايب . .

(٢)

كان الراعى يتنقل فيما مضى بكل حرية بحثا عن الكلأ لقطيعه الكبير الذى كان يزداد عدده عاما بعد آخر بصورة ملفتة للنظر. وكان يجتاز السهوب والوديان والجبال الوعرة ليلا ونهارا دون ان يهاب اى شيء . ورغم الهجمات المباغتة للذئاب الشرسة هنا

وهناك ، فان ضحاياه كانت قليلة بالنسبة الى تكاثر القطيع . كان قطيعه يعيش فى ربيع دائم . وفى اشهر الصيف حين كان الكلأ يجف فى أطراف الجزيرة وسهل اربيل والحويجة يكون هو قد انتقل بقطيعه الى ذرى جبال كردستان ، حيث العشب الطرى والارض الندية ومياه العيون . كان له ثلاثة اصدقاء أوفياء : حصانه وكلبه وبندقيته . كان كلبه اذا راى ذئبا فمن المستحيل ان يتخلص من انيابه الحادة . واما اطلاقات بندقيته فلا تذهب عبثا . لقد بدأت نكبته في احد ايام الخريف حين عضّ ذئب مسعور كلبه ففقده دون ان يعوضّه ، فبقى معتمدا على بندقيته فى الحفاظ على القطيع .

وذات يوم من ايام الصيف القائض حيث الماء والكلأ كانا شحيحين أكثر من اى وقت مضى ، كان فى طريقه للبحث عن الكلأ ، وكان قد ترك وراءه اميالا طويلة مرّ خلالها بمحاذاة غابات النخيل اللانهائية وضفاف الاهوار واراضى السبخ الهشّة التى لا ينبت فيها سوى الشوك والعوسج . كان يواصل سيره تحت اشعة الشمس المحرقة بلا كلل ، واذ هويحلم ، من خلال السراب الممتد امامه مثل بحيرة لا نهائية ، بالمروج والمياه ، وجد نفسه بغتة امام منطقة واسعة من المراعي الخضراء ترعى فيها عدةّ قطعان . سحب زمام حصانه الاصهب فجأة وبلا ارادة منه ووقف يتامل المكان مبهوتا . كانت الاغنام ترعى باطمئنان . واما الرعاة الثلاثة وكلابهم فقد استغرقوا فى نوم عميق تحت ظلال الاشجار الوارفة . ومما جلب انتباهه سياج من الاسلاك الشائكة يحيط بالمنطقة الخضراء . وبدا له ان السياج انما وضع لتحديد المنطقة اوان العمل مازال جاريا لتثبيته ، ذلك لأن السياج كانت تتخلله ثغرات كثيرة .

صاح بصوت عال :

— هى ىى ىى . . من هناك ؟ . .

لم يجبه أحد . كانوا قد استغرقوا في نوم عميق لا يُسمع سوى شخيرهم العالى . أطلق رصاصة فوق رؤوسهم . استيقظ احدهم متثائبا بكسل ، بينا بدأت الكلاب تعوى بخمول هازة ذيولها في اماكنها دون ان تتحرك . وراحا يحدقان فى بعضهما باستطلاع كما لوانهما قد التقيا من قبل . وصاح الراعي المتثائب الذى سرعان ما قفز من مكانه :

— اوه . . حمزة ، أهذا انت ؟ . . انت حقا ؟ كنت ابحث عنك ، بل كلنا كنا نبحث عنك وها انك جئت بنفسك . حسن فعلت بمجيئك . . انظر ، هذه هى النعمة الحقيقية ، ينابيع المياه والخضرة الدائمة . اننا نعيش هنا مثل الامراء . . لا تسكع بين البرارى والجبال ، ولا سهرات الليالى خوفا من الذئاب وبنات آوى . .

هنا تستطيع ان تنام ليلا ونهارا . تعال الينا يا حمزة وتخلّص من حياة الشقاء والركض وراء الكــلأ . .

قال حمزة باستغراب وعيناه مازالتا تسبحان فوق المروج والحقول الممتدة الى ما وراء الافق :

– قل لى ، كيف وجدتم هذا المكان ؟ . . ثم . . يترآءى لى أن هذا المكان ليس مرعى مشاعة للجميع . .

– طبعا مرعى مشاعة للجميع يا حمزة . .

– الا تحسّون هنا بالملل ؟

قال الراعي الذى لا حظ حمزة ان علائم البلادة قد زادت على وجهه الذى زالت عنه ملامح حياة الرعي القاسية :

– حين تعيش هنا اسبوعا واحدا ستتحسر على الايــام التى ذهبت من العمر بحثا عن الكلأ يا حمزة . كل شيء متوفر هنا . اننا نتناول هنا أطعمة لم نحلم بها في حياتنا . . . حمزة ، هل تتذكر ايام كنا نرعى الغنم سوية ونتحدث عن الحياة التى يمارسها أهــل المدن ؟ وكيف كنا نتصور الشراب الذى يسكرون به ؟ أجل ، اننا نشرب الآن افضل انواعه . . اننى لا اريد ان اغريك حتى تاتى الينا ، فانت ادرى بمصلحتك ، ولكنك صديقي يا حمزة فانا ايضا اريد مصلحتك . .

قال حمزة متظاهرا بالغضب وهو يبلع ريقه :

– ابن القحبة ، هل تريد ان تضحك عليّ ؟ منذ متى تعلمت على المقالب ؟

ارتاح الراعى للشتيمة بعد ان تأكد بان كلامه لم يذهب عبثا :

– ثق بالله العظيم يا حمزة ، ان كل ما اقوله صحيح . ليس لى اى مصلحة في الكذب. جرّب ، ابق معنا وسترى كل شيء بام عينك . ان صاحب المقاطعة يعرفك ويريد أن يتحدث معك في هذا الموضوع . . ثم اذا لم يعجبك الوضع يا حمزة فان للسياج ثغرات كثيرة ، تستطيع ان تترك المكان متى ما شئت فانت فى كل الاحوال لم تخسر شيئا .

قال حمزة وشكه المعهود يضع ألف علامة استفهام حول مجمل الموضوع :

– ولكن كيف ؟ . . هل ان صاحب المقاطعة يوفر لكم كل هذه الامتيــازات حبــا بسواد عيونكم ؟ وبدون مقابل ؟

– انه يملك معملا للألبان قريبا من هنا ، نبيع له الحليب بسعر مناسب ، كما يجب ان نبيع له الصوف ايضا ، واما ماذا يفعل بالحليب والصوف فامر لا يهمنا . كل ما في

الامر هو اننا يجب ان نبيع له انتاجنا، ولذلك فانه يعمل من اجل ان يجمع شمل كل رعاة المنطقة حتى يعمّ الخير ويستفيد الكل .

قال حمزة باستغراب مفكرا فى هذا الشيء الذى لم يسبق له أن عهد به من قبل :

— هذا كل ما في الامر؟

قال الراعي بلهجة المقتنع :

— هذا كل ما فى الامر يا حمزة . .

أطرق راسه هنيهة وشرد ذهنه . كان أحد الرعاة قد فكّ سرج الحصان وسقاه وقدم له العلف اللازم في اصطبل قريب . . قال حمزه كما لو انه يدمدم مع نفسه :

— لاشك هناك أمرغامض .

— كلا أبدا ، لا تخلق لنفسك تصورات وهمية لا اساس لها . اننا نحن الرعاة لا نستطيع التخلص من هذه العادة القبيحة ، عادة الشك بكل شيء . صحيح ان الرجل كان شقيا فيما مضى ، ولكنه الآن صاحب عائلة واولاد ومنصرف لشئون معمله دون ان يضرّ أحدا ، وهو فعلا بحاجة الينا ، ثم اننا لا نعطيه الحليب والصوف مجانا .

وقبل ان يكمل حديثه ظهر صاحب المعمل :

— يا لها من صدفة جميلة، انظر ها هوقد جاء. لاشك انه رآك من بعيد فعرفك . . ارجوان تكون لطيفامعه . ان اقل تعنت منك سيعيده الى ماضيه ونحن يجب ان نساعده حتى يتخلص من ظل الماضي .

وعرف حمزة بسليقته ان حضور الرجل ليس من باب الصدفة . ان الرجل الذى اعتنى بالحصان قد اختفى لفترة غير قصيرة .

نظر حمزة الى ملامح الرجل بشك وريبة ، وكان قد سمع عنه أشياء كثيرة غير مريحة مثل الاشتغال مع المهربين وقطاع الطرق واللصوص ومتهم باكثرمن حادث قتل . . واما الآن فيملك معملا كبيرا للالبان . . اين هذا من ذاك ؟ واختلطت عليه الامور وقال في نفسه : « اللصوصية والقتل شيئآن يلازمان حياة الريف . . قد اقتل انا ايضا اذا تعرض قطيعي للخطر ، وقد اضطر للسرقة ايضا اذا استدعت الحاجة . والانسان يمكن ان يتوب امام الله ، والله غفور رحيم . واذا كان الزمان قد تغير بهذا الشكل ، فلماذا اظل راكبا رأسي أشكّ فى كل شيء ولا أعرف التفاهم والمصالحة ؟ » .

وقطع صوت الرجل سلسلة افكاره ، قائلا بحرارة :

– اهلا وسهلا بالاخ العزيز حمزة . . لقد كنت انتظر هذه اللحظة على احرّ من الجمر . . ثق اننى بحاجة اليك يا حمزة وأعتقد أنك لا تخيبّ ظني فيك ولا تخذلنى .

وعانقه الرجل بقوة غارقا وجهه بالقبلات :

– انت أخى وصديقى ، المقاطعة مقاطعتك افعل بها ما تشاء . .

وأشار بغمزة من عينه الى الراعي الآخر ان ينصرف ، ثمّ مدّ يده ماسكا يد حمزة آخذا اياّه باتجاه بيت فخم وراء سور من الاشبار . وكان حمزة يسير كالمأخوذ دون ان يصدقّ ما يجرى حواليه . كان يخيل اليه انه فى حلم وكلمات الرجل الهادئ تتسرب الى اذنيه كالسحر :

– ان لك مكانة خاصة في قلبى يا اخي حمزة . اننى سوف اعاملك غير معاملتى لهؤلاء ، فانت الراعى الوحيد في المنطقة والذى له القدرة الحقيقية على الرعي .

كانت الدهشة قد عقدت لسان حمزة . وأحسّ فى اعماقه ان المفآجأة قد ايقظت فى داخله كل الطيبة الرعوية المتوارثة عن الاجداد عبر آلاف السنين ، وتحول الرجل امام عينيه دون ارادة منه الى ملاك طاهر أبيض يسبح فى الفضاء بكل براءة وعفة .

تناولا وجبة طعام شهية معا ، فالقضية اذن وصلت الى حد الخبز والملح . ولا بد ان يزول كل أثر للضغينة والحقد والشك . ان الرجال الحقيقيين هم من يلتزمون بالعهود ولا يطعنون حتى أعدائهم من الخلف ، أجل ، هكذا بدا الرجل وتصرف أمام حمزة ، الراعى الذى لم يعرف الكذب والخديعة والنفاق ، والذى تمردّ قبل اكثرمن اربعة عقود على الاقطاعي الشرس الذى حولّ حياة الفلاحين الفقراء فى المنطقة الى جحيم لا يطاق . وكان الرجل (السيدّ) كما كان الرعاة يسمونّه ، يعرف جيدا ان حمزة صعب المراس وان ترويضه في داخل المقاطعة عملية غير سهلة وعليه ان يكون حذرا كل الحذر ، فان العصفور اذا خرج من القفص فانه لن يعود اليه ابدا ، ثم ان هذا العصفور سينقلب عليه صقرا ، بيد ان السيدّ لم يكن من الرجال الذين يتميزون بالصبر الطويل او من النوع الذى يتخذ من الآخرين أصدقاء له ، وكان حمزة يعرف هذه الحقيقة ولكن طيبته الفلاحية التى بلغت حدّ السذاجة كانت تسدل الستار على هذا الجانب الاسود من شخصية السيّد . ثم انهّ فكّر اكثر من مرة بان الخروج من هذا المكان ، اذا اقتضت الضرورة ، ليس بالامر الصعب ولا سيما ان السياج مفتوح من اماكن عديدة فلم الخوف وضرب الاخماس بالاسداس ؟

تناول السيّد يد حمزة بيديه الاثنتين وقال باستعطاف لم يعهده حمزه من قبل :

– ثق اننى لا اطمع في اى شيء . كل ما في الامر هوان يبقى القطيع داخل المقاطعة

وتعاهدني بعدم بيع الحليب والصوف الى شخص آخر. انك لا تستطيع ان تقدر الخسائر اذا توقف المعمل يوما واحدا عن العمل . .

أضاف حمزة بعد ان وافق على هذا الشرط :

ـ ولكنني لا اوافق على ان يختلط قطيعي بالقطعان الاخرى .

قال صاحب المقاطعة بنوع من عدم الارتياح :

ـ كما تشاء .

تابع حمزة بلهجة اصرار :

ـ ولا اخفي عليك سرا اذا قلت لك انني احب اغنامي بشكل غريب ، فقد اعتنيت بهم واحدا واحدا وربيتهم بكل عناية فنموا وكبروا وتكاثروا امام عيني ، وسهرت الليالي حتى اجنبهم هجمات الذئاب الشرسة وجبرت بيدي كسورهم ، ولذلك لن اقبل ان يتعرض اي واحد منهم للذبح مهما كان السبب ، وعلى فكرة فانني لم اذبح خروفا واحدا في حياتي . .

قال صاحب المقاطعة بنوع من الاستخفاف ، وهو يحاول عبثا اخفاء تجهمه الملازم له :

ـ هل هناك شرط آخر يا حمزة ؟

ـ اريد مكانا خاصا داخل المقاطعة اسيجه فيما بعد بنفسي . .

ـ ولكن ، لم هذه التعقيدات . ؟

ـ لانني معظم الاحيان استيقظ في الليل واراقب اوضاع القطيع . . عادة قديمة لا استطيع التخلص منها مع الاسف . .

قال السيد بنبرة ، أحس بها حمزة غير مريحة :

ـ اتفقنا يا حمزة . . والآن يمكنك ان تقود القطيع الى داخل المقاطعة .

كان القطيع كبيرا ، وأند هش صاحب المقاطعة من انه قد احتل أكثر من نصف الاراضي المخصصة للرعي . اعتراه شعور من الحسد ، وقال في نفسه : « ابن الزانية ، كيف استطعت ان تكوّن كل هذا القطيع ؟ كيف سيكون مصير المقاطعة بعد موسم الولادة وجنابه لا يوافق حتى على ذبح خروف واحد . اذا بقيت الامور كما يشتهي هو فمعنى ذلك انه سيحتل المقاطعة كلها بعد أعوام قليلة . . المهم انه دخل السياج »

كان حمزة يستنشق بنشوة رائحة الغبار المتصاعد الذي تتركه الاغنام وراءها . لا يدري لماذا أحس بزهو كبير . وحين تأكد من دخول القطيع كله ، تنكب بندقيته وتبعه الى داخل المقاطعة ، ولكنه قبل ان يجتاز البوابة شعر بضربة يد خفيفة على كتفه ، وحين التفت الى مصدر اليد واجهه السيد بابتسامة خبيثة قائلا :

— ارجو ان تعطيني هذه .

قال حمزة دون ان يفكر وبصورة لا ارادية :

— مستحيل . .

ضحك السيد وقال بصوت اجش :

— انك لا تحتاج اليها ياصديقي ، ثم لماذا هذا العبء ؟

— كلا ، انها جزء منى . . انها مصير قطيعي .

— لا يا صديقي العزيز لا ، ثق انك لا تحتاج اليها . ثم ماهى حاجتك اليها ؟ مم تخاف ؟

— الذئاب . . كيف أحمى القطيع من الذئاب ؟

قهقه السيدّ بسخرية وهو يقول بثقة مطلقة بالنفس :

— الذئب الذى يعبر السياج لم يولد بعد يا صديقي . . ان مثل هذه الذئاب لا توجد سوى فى الخيال ، ثم اننى وافقت على كل شروطك ، فلماذا لا توافق على شرط واحد لى . ؟ أهذه هى ثقتك العالية بي ؟ الم ناكل الخبز والملح معا قبل قليل ؟ لا يا صديقي العزيز لا ، انها بداية غير حسنة . ان اهم شرط لعملنا هوالثقة المطلقة . اننى اطمئنك بتحمل مسئولية ضياع أى خروف شخصيا .

سلمه البندقية على مضض وبشيء من الانفعال . تنفس السيدّ الصعداء وقال قبل ان يختفي :

— ستجد فى هذه المقاطعة الجميلة كل الراحة والاطمئنان والسعادة . .

(٣)

كان السيدّ قد اعتاد ان يذبح مرة فى الاسبوع خروفا سمينا او خروفين من أحد القطعان الموجودة على ارضه دون ان يخبر اصحابها ، وكان هؤلاء يعرفون ذلك ، ولكنهم يغضون النظر عنه ، وذلك لثقتهم المطلقة بانهم لا يستطيعون ايجاد مكان أفضل من هذا . ثم انهم اذا اخذ وا قطعاتهم الى البرارى والجبال فان حصةّ الذئاب او المرض والهلاك تكون في كل الاحوال أكثر بكثير ، فى اعتقادهم ، من هذه الحصة البسيطة التى يكمركها السيدّ . وكان السيّد هوالآخر يعرف جيدا ان هؤلاء قد تعلموا على الراحة فمن المستحيل ان يعودوا الى طراز معيشتهم القديمة ، ولا شك ان حمزة سيتحول الى واحد منهم بمرور الزمن ، عند ذلك يعرف كيف سيتصرف بخرفانه السمينة التى تتكاثر مثل الذباب .

عندما بدأ حمزة حياته الجديدة معهم ، سمعهم يتهامسون فيما بينهم باتجاه ضرورة احترام مشاعر السيد والحفاظ على صداقته بكل الوسائل . وكانوا يعتبرون العيش فى مقاطعة السيد شرفا لا يضاهى .

كان حمزة يستطيع ان يعرف بنظرة واحدة يلقيها على القطيع ، ما اذا كان ينقصه حتى راس واحد . كان ينام فى النهار وفى الليل يتخذ مكانه وسط القطيع المتجمع فى المكان المخصص له .

مرّت اسابيع دون ان يمس أحد القطيع . وذات ليلة مظلمة رأى رجلا يعبر السياج فهرع اليه بخفة . وقبل ان يقود الخروف الى ما وراء السياج أمسك به ، ولكن السارق استطاع ان يتخلص منه بضربة قوية من كعب مسدسه على مؤخرة راسه .

وفى اليوم الثانى وجد ان احسن رأس فى قطيعه قد اختفى . وكان الصداع حادا مؤلما . وقرر ان يذهب لمقابلة السيّد . وقبل ان يبلغ صف الاشجار ظهر رجلان قويان بملامح جامدة يحمل كل واحد منهما بندقية رشاشة . قالا بصوت واحد وبلهجة آمرة :

— ارجع الى حيث اتيت ، السيّد غير موجود هذا اليوم .

قال بالحاح :

— ولكننى يجب ان اراه هذا اليوم . ابلغاه بطلبى هذا فورا . هناك أمر مهم جدا .

نظرا اليه باستخفاف وبدون اكتراث . قال أحدهما :

— لقد قلنا لك ان السيّد غير موجود هذا اليوم ، فهلاّ تفهم لغتنا ؟

قال الثاني :

— لقد سافر السيد الى مكان آخر لانجاز بعض الاعمال المهمة وعندما يرجع سنبلغه بطلبك . والآن نرجوان ترجع الى حيث اتيت .

كان يذهب فى صبيحة كل يوم الى نفس المكان بغية اللقاء به دون جدوى الى ان انقضى اكثر من اسبوع حيث جاءه أحد الرجلين يطلب منه المجيء لمقابلة السيد.

كانت اوصاله ترتجف من الغضب حين قابل مالك المقاطعة ، ولكن هذا راح يهدئ أعصابه باعتذاراته الكثيرة لعدم تمكنه من اللقاء به منذ أول يوم وذلك لعدم وجوده على ارض المقاطعة ، ثم طلب اليه ان يذكر له سبب المقابلة . . . أدرك حمزة لاول مرة ان لا علاقات صداقية في هذا المكان وان اى لقاء بالسيد لا يجوز الاّاذا تعلق بالعمل، وأحس انه رغم اعتذاراته الكثيرة وغير المقنعة فان لقاءه هذا يختلف اختلافا جوهريا عن لقائهم الاول . قال حمزة بلهجة صارمة :

— كنا قد اتفقنا بانك ستضمن سلامة القطيع ، ولكنك اذا كنت في وضع لا يساعدك على ذلك فأعد لى البندقية .

قال بعجرفة ذكرته باقطاعيّ منطقتهم ، والذى تمرّد عليه قبل اعوام طويلة :

— لا يا حمزة لا لا تخف . انى سأضمن لك سلامة القطيع . لقد حدث خطأ فى تلك الليلة . ان الرجل الذى عبر السياج لم يقصد قطيعك انت ، لذلك ارجو ان تنسى هذا الموضوع

— الامر سيان يا سيدى سواء أقصد قطيعى ام قطيع غيرى . المهم انه عبر السياج . هذه مسالة لا يمكن السكوت عنها .

قال بحدة وعجرفة اكثر :

— انظر يا حمزة . . أنت مسئول عن قطيعك فقط واما قطيع غيرك فمسالة لا تخصك . واحب ان اقول لك بان لا تتدخل فيما لا يعنيك . لقد قلت لك مسبقا بان لك مكانة خاصة عندى وباننى ساعاملك غير معاملتى لاولئك ، لذلك عليك ان تمدّ رجلك بقدر لحافك

كان حمزة لم يتعود على سماع مثل هذه اللهجة سوى من اعدائه . بقى مبهوتا لهنيهة . وتذكر ان تحديه للاقطاعى الذى كان يمتاز بنفس اللهجة والغطرسة هو الذى جعله ان يختار البرارى والجبال والحياة القاسية وعدم التقيد بالاستقرار فى المنطقة . والآن يجابهه هذا بنفس الاسلوب ، فما هوموقعه يا ترى بالنسبة الى هذا السيد؟ وما ذا يتصور السيد يا ترى ؟ هل انه دخل المقاطعة كصديق أم خادم يأتمر باوامر سيّد يريد ان يحل محل سيد آخر؟ تزاحمت الكلمات فى راسه . وقف فى مكانه كما لو انه لا يستطيع الكلام الا وقوفا وقال بصرامة

— اعتقد اننا نعرف بعضنا البعض جيدا ياسيّد . . ولقد اعترفت بنفسك بأننى لست كالرعاة الآخرين ، ولذلك أحذرك بأن اى مسّ بقطيعي يعني القطيعة التامة بيننا . .

وترك المكان دون ان ينتظر الجواب ، وفى دخيلته شعور غريب أوحى اليه أنه متسكع يطرق ابواب اللئام .

(٤)

كان الرعاة الثلاثة قد التصقوا ببعضهم البعض بهلع ينتظرون على أحر من الجمر قدوم حمزة . وعندما رأوه قادما مرفوع الراس وبخطوات ثابتة يبدوكما لو انه خرج

ظافرا من معركة مصيرية ، جمدوا فى اماكنهم وهم يقيسونه طولا وعرضا مستغربين من رجوعه سالما قال الاول

— كلاهما مجنونان ، جنبنّا الله شرّ التصادم بينهما

قال الثانى

— ان وجود حمزة بيننا مسالة من صالحنا ، لذلك ينبغى علينا ان نسانده .

قال الثالث برعب

— معاذ الله ان نفعل ذلك . ان السيد اذا غضب علينا فاننا سنفقد كل شيء . انكم لا تعرفون كم هو رهيب

وعندما اقترب منهم حمزة بابتسامته العريضة ، أضاف الثالث متوسلا

— حمزة ، ثق انى اريد مصلحتك . كان من المستحسن ان تسكت . ما قيمة راس واحد بالنسبة لثروتك ؟

حدّجه حمزة بنظرة فيها سخرية وقسوة قائلا

— انا لم أعرفك فى حياتى سوى جبانا رعديدا ، فخير لك ان لاتتد خل في شئون الرجال .

قال الثانى

— حمزة ، اننا بحاجة اليك . أخشى ان تغضب ذات يوم وتتركنا هنا لوحدنا . ثق ان اللقمة التي يقدمونها لنا هنا لا استطيع بلعها لانها من لحم أغنامى .

قال الاول

— كفى كلاما دعوه الآن يخبرنا عما جرى بينه وبين السيد .

قال حمزة بهدؤ محاولا اعطاء صورة واقعية للسيد الذى تحول امام اعين هؤلاء الى لغز اسطورى لا يمكن حلّه :

— ان هذا الذى جعله الزمن الردئ سيدا يريد ان يقتنع فعلا بهذه التسمية التى لا يصدقها هو بنفسه . وليس هذا حسب ، بل انه يريد ان يجعل من نفسه أسكندر ذي القرنين هذا الزمان ، فاما ان نخرج هذه القطنة من اذنه ونجبره على السير في الطريق الصحيح ، أو نتركه يفعل ما يشاء ونتبعه مثل الكلاب السائبة . اذ ذاك سيتحول فعلا الى اسكندر ذى القرنين . ولعلمكم فقد حذرته من عاقبة مسّ قطيعي . .

قال الثلاثة بدهشة وبصوت واحد :

— وماذا قال ؟

— لم انتظر جوابه . . قلت كلامى وخرجت .

قال الثالث وهو يكاد يبكى

— يا لهى ماذا فعلت يا حمزة لقد خرّبت كل شيء الى متى تظل راكبا راسك ؟ قال الثانى

— حسن فعلت يا حمزة ، ليعرف السيد ان هناك من لا ينحني امامه اننا اذا تماسكنا فيما بيننا فان اى متسلل مهما كان لا يستطيع عبور السياج .

قال الاول

— يؤسفني اننى لا استطيع مواجهة السيد بكلمة واحدة حتى اذا ذبح قطيعى كله .

قال الثالث

— ان قطيعى امامه . . يستطيع ان يفعل به ما يشاء .

انصرف الاثنان وبقى الثانى واقفا في مكانه ، بينا ذهب حمزة الى قطيعه غاضبا وهازاً راسه بالم وهو يقول

— لم لا ؟ . لم لا يتحول الى اسكندر ذى القرنين اذا كان هؤلاء الخصيان هم رعاة هذا الزمان ؟

(٥)

عندما بدأ الظلام ينتشر فى سماء المقاطعة ترك الراعي الثاني منزله وهو يلتفت يمنة ويسرة بحذر شديد ، فلما لم يجد اثرا لأحد تسلل بخفة الى منزل حمزة . وكان هذا مستلقيا على عباءة من الفرو مستغرقا فى تفكير عميق يبدو كما لوانه يخطط لمشروع ما .

قال حمزة متفحصا ملامح صاحبه باستغراب

— مابالك ترتجف من الخوف ؟ هل حصل لك شئ ؟

قال الراعي بصوت مرتجف وخافت

— لا يا حمزة لم يحصل لى شيء ، ولكننى كنت اخشى ان يرانى أحد وانا فى طريقى اليك !

تربع حمزة فى مكانه بدهشة وقال

— ماذا تقول ؟ هل ان الزيارات ممنوعة ؟

— طبعا يا حمزة . . ان الزيارات في الليل ممنوعة منعا باتا .

انكمشت ملامح وجه حمزة :

— ماذا ؟ هل انا احلم ؟ ام انك فى وضع غير طبيعى ؟

– لا يا صديقي حمزة لا لا انت تحلم ولا انا في وضع غيرطبيعى . هذه هي الحقيقة .

قفز حمزة من مكانه بخفة وراح يذرع ارض الغرفة جيئة وذهابا وهو يقول دون ان يلتفت الى صاحبه

– انني اكتشف هنا كل يوم شيئا جديدا . .

هزّ الراعى راسه

– وستكتشف اشياء كثيرة أخرى يا حمزة .

اطرق حمزة راسه وراح ينظر الى الارض كعادته كلما استعصى عليه شيء ، ثم رفع راسه ناظرا فى وجه صاحبه

– اننا يجب ان نفعل شيئا

قال الراعى متحسرا

– لا نستطيع القيام بـاى شيء يـا حمزة ، لأن الراعيين الآخرين متفقـان مع السيدّ بحيث انهما اصبحا جزءا من حاشيته .

– عجيبٌ . . وكيف يوافقان ان تسرق اغنامهما اسبوعيا دون ان يحركا ساكنا ؟

– لا تكن ساذجا يا حمزة انهما اصلا لا علاقة لهما بالرعى والسيد هو الذى اشترى لهما معظم اغنام قطيعيهما انهما مجرد واجهة لجذب الرعاة الآخرين الى المقاطعة . ولقد سمعت منهما ان السيد قال لهما ذات مرة انه سيجلب جميع رعـاة المنطقة الى مقاطعته شاء وا ام ابوا ، ولذلك فان مهنة الرعي خطرة جدا . وأكد لهم أن الرعاة اذا لم يوافقوا على المجيء الى مقاطعته فانه سيبيد أغنامهم بلا رحمة

قال حمزة كالواثق من نفسه وباعتداد

– لقد كنت على حق حين تصورت ان الرجل يريد ان يكون اسكندر ذى القرنين هذا الزمان . كان ابى محقا ايضا عندما قال ان الشجرة العوجاء لن تستقيم ، ولذلك يجب قطعها . . ولكن كم من الماء تحتاج هذه العجينة يا ترى ؟

– تصور يا حمزة . . فى اول لقـاء بيننا كاد السيّد ان يكسر ضلوعي من شدة العناق والترحيب ، وأما الآن فانني لا اتذكر متى التقيت به آخرمرةً . انه يعاملنا مثل الخدم .

قال حمزة باصرار :

– أؤكد مرةً اخرى اننا يجب ان نفعل شيئا

قال الراعى بصوت كسير فيه نبرة اليأس

– أنا بالنسبة لى لا تتوقع منى خيرا فقد اجتزت مرحلة الكهولة . والحقيقة اننى لا

استطيع التنقل بين السهول والجبال . لقد تعبت وتعودت على الراحة والاسترخاء ، ويؤسفني ان اقول لك بصراحة باننى أهاب هذا السيد ولا اريد ان أدخل معه فى أى خصام .

— قل لى ، هل أخذ بندقيتك ايضا ؟

— حتى خنجرى أخذه .

قال حمزة وهو يتحسس خنجره فى وسطه

— عجيب أمر هذا الرجل . ان كل شيء هنا يبدولى غريبا

— انى اشك حتى فى مسالة وجود المعمل يا حمزة تصور سألت ذات يوم بنية صافية أحد الحراس عن موقع المعمل. وكان ان كفرت كفرا عظيما لا غفران بعده. هل تدرى ماذا فعلوا بي يا حمزة ؟

نزع الراعى قميصه وراح يريه ظهره ، قائلا :

— تفضل أنظر . .

قال حمزة بدهشة

— ما هذا ؟ من شوه ظهرك بهذا الشكل ؟

لبس قميصه واعتدل فى جلسته قائلا

— هذا كله بسبب ذلك السؤال .

— انا لا افهمك كيف يشوه ظهرك بهذا الشكل بسبب سؤال عادى لا اهمية له ؟

مد الراعى يده مصافحا حمزة وقائلا بصوت مرتجف

— ثقتى مطلقة بك يا حمزة ، ولكن ارجو ان يبقى هذا الكلام سرا بيننا ، لأن عاقبة النطق به هي الموت .

— تكلم ، لا داعى ان تنصحنى بالتزام الصمت

— تصور ، مسك الحارس يدى وقال بابتسامة خبيثة ، تعال اريك المعمل . ثم أخذنى الى البناية الواقعة وراء صف الاشجار. وهناك قادني عبر أحد الابواب الخلفية الى غرفة بلا نوافذ جلس فيها ثلاثة رجال أقوياء بوجوه مخيفة وملامح قاسية لم ار مثلها من قبل . سلمت عليهم فلم يرد أحد منهم . كانوا ينظرون الى بشزر ، قال لهم الرجل الذى قادنى الى هناك ، ان هذا الراعى المحترم جدا يريد ان يعرف موقع بناية المعمل . وهنا بدأ التحقيق. لا أراك الله يا حمزة تحقيقا من هذا النوع طلب منى الرجل الجالس وراء المكتب أن اقترب منه . ولما ابديت استغرابى وأستفسرت عن سبب جلبي الى هذا المكان فآجأني صاحبي الواقف الى جانبي بصفعة قوية أفقدت

توازني ثم قال، جلبناك الى هنا حتى نريك المعمل . . الاتريد ان ترى المعمل ايها الراعي العظيم؟ هكذا ببساطة تلقيت الصفعة يا حمزة ، أنا الذى لم اتلق اى صفعة فى حياتى . ثق لوكنت احمل سلاحا لقتلتهم جميعا . وفى تلك اللحظة عرفت لماذا جرد وني من بندقيتي كما تذكرت في نفس الوقت مثلا ضربه لي أبي رحمه اللّه بعد أن عرف بانني قد أعرت حصاني لصديق لى فقال « يا ولدى ، ثلاثة أشياء لا تعار ، الامرأة والبندقية والحصان » . وعضضت على شفتى لنسيانى وصية والدى . وقفت مبهوتا حائرا شارد الذهن . وقال الرجل الجالس وراء المكتب ، هل تريد ان تقول الحقيقة ام نريك نجوم الظهيرة ؟ قلت أية حقيقة ، انا لا أفهم هذا النوع من التعامل ، اين نحن ؟ ماذا تريدون مني ؟ لا اريد ان اطيل عليك الحديث ، نزعوا ملابسي وشدّونى على حلقة حديدية مثبتة على الجدار وراحوا يلهبون ظهرى بالسياط ، وهم يضحكون ويعربدون ويفاجئونني بين آن وآخر بركلات على راسي وظلوعى ويكررون نفس السؤال : قل الحقيقة ، لماذا تريد ان تعرف مكان المعمل ؟ . . وهكذا بقيت فى تلك الغرفة الرهيبة طيلة اسبوع كامل وهم يمارسون معي كل انواع التعذيب والاهانات التى لا استطيع وصفها لك. وبعد اسبوع أخرجونى من الغرفة وبعد ان عالجونى طلبوا منى ان اقدم تعهدا بعدم ذكرأى شيء عماحدث والاّ فان الموت تحت تعذيب آخر سيكون مصيرى . سواء أصدّقت أم لم تصدق يا حمزة ، تلك هى قصتي ، وها اننى أجلس امامك وقد فقدت فى هذا المكان رجولتي وانسانيتي .

قال حمزة كالحالم

ـ ألم تفاتح السيدّ بهذا الموضوع ؟

قال مبتسما بسخرية

ـ لا تكن ساذجا يا حمزة ، هل تعتقد أن هؤلاء يستطيعون التصرف بهذا الشكل بدون أوامر سيّدهم ؟ أنت اول شخص أفاتحه بهذا الموضوع لقد طلبت مرارا وتكرارا مقابلته ، ولكن دون جدوى

قال حمزة وهو يحاول عبثا الخروج من شروده

ـ ان هذا الوضع يجب ان يتغير .

قال الراعى الآخر كاليائس وهو يقوم من مكانه

ـ ولكنك ستحتاج لذلك الى قوة خارقة يا حمزة اننى يجب ان أذهب الآن وارجو منك ان تكون حذرا جدا . .

(٦)

أستغرق حمزة ساعة كاملة فى شروده ، أستعرض خلالها كل حياته فى السهول والجبال والاهوار ومغامراته ومشاكله مع الاقطاعي ، وكانت كلمات الراعى تتقاطع مع موجة افكاره لتستقطب كلها في نقطتين راحتا توخزانه بشكل عنيف ، الاولى ، بندقيته التى سلّمها دون تفكير والثانية ، قصة المعمل .

فكّر ،أنه اذا طلب البندقية من السيدّ فانه لابد سيشك في أمره، ثم انه ليس غبيا الى هذه الدرجة بحيث يعيدها اليه ببساطة ، والاّ فلماذا أخذها منه؟ أجل ، ثلاثة أشياء لاتعار، الامراة والبندقية والحصان . ولكن المشكلة الآن أدهى وأمرّ، فـالرجل لم يستعرمنه البندقية ولا هو أعاره أياها ، بل انه سلّمهاله ، فالتسليم شيء والاعارة شيء آخر ، ولذلك قرر ان يكتشف سر المعمل مهما كلّفه الامر. كان الظلام فى الخارج دامسا جدا أراد كخطوة اولية ان يمشي بمحاذاة السياج ليرى ما اذا كان ثمة طريق سرى يؤدى الى المعمل ، ولكنه غيرّ رايه بعد أن اقتنع بأن المشي حول المقاطعة سيتعبه ، ثم انه حسب حساب الهجوم المباغت من أحد الحراس ، الامر الذى يجب ان يوفّر له طاقته .

ترك المصباح مشتعلا ، ووضع مخدة فى الفراش مغطيا اياها بقطعة قماش خفيفـة كما لوانه نائم. امتطى صهوة حصانه وراح يسير بمحاذاة السياج. قرر أن يطعن بخنجره أى انسان يعترض طريقه . بعد مسيرة قصيرة بلغ نقطة الحراسة الاولى ، فوقف لهنيهة . ورأى من خلال النافذة العالية أن الحارس نائم ، وواصل سيره . كان الحارسان في النقطتين الثانية والثالثة نائمين ايضا . أستعرب من الامر وغذّ السير بشجاعة أكبر. وعندما وصل نقطة الحراسة الرابعة رأى من خلال النافذة العالية أن المصباح يشتعل بدون وجود أحد فى الغرفة . قال في نفسه : «لا شك ان الحارس ينصب لي كمينا فى الظلام » . قفز من على ظهر حصانه بخفه ، ومسك مقبض خنجره بقوة . كانت عيناه قد تعودتا على الرؤية في الظلام . وراح يجيلهما ببطء فى أرجاء المكان . كان الحارس جالسا على مبعدة عشرة أمتار من نقطة الحراسة ، سمعه يقول بصوت خافت .

ــ لا تخف يا حمزة ، تعال لنشرب الشاى معا ونتحدث في امور الزمان .

أحس حمزة من نبرة صوته أنه لا يضمر شرا ، فقال بصوت خافت وهو يقترب منه :

ــ حذار ان تحاول استعمال سلاحك . .

ــ كلا يا أخى لا تخف ، ليست لى اى عداوة معك ثم ان بندقيتي خالية من العتاد الحقيقي . .

قال حمزة بدهشته المعتادة

– غريب أمركم ، اننى بدات اكتشف هنا ليس كل يوم حسب ، بل كل ساعة شيئا جديدا . ما معنى وضع عتاد غير حقيقى فى البندقية ؟ هل الثقة مفقودة بينكم ؟

قال الحارس وهو يقدم له قدحا من الشاى

– نعم ، الثقة مفقودة هنا يا سيد حمزة ، ولكن كل ما ارجوه هوان نتكلم بصوت خافت . أنا اعرفك جيدا وسمعت عنك الكثير ، وقد اعجبنى موقفك كثيرا جدا عند مواجهتك الجريئة للسيد . هل تعلم أنه منذ تلك اللحظة يشتعل مثل البركان من شدة الغضب؟ انك اول من يواجهه بهذه الجرأة فى حياته. اننا ننام عادة فى اوقات حراستنا ، ولكننى اليوم لم انم من شدة فرحي . ثق اننى كنت سآتيك بنفسي لولم نلتق الآن .

قال حمزة بسخرية ويده ما زالت قابضة على الخنجر :

– من شدة فرحك ؟ السّم كلكم من طينة واحدة ؟ هل تريد انت الاخران تضحك على ؟

– هسسسسس أرجوك تكلم بصوت خافت . ان السيد اذا عرف اننا جالسان هنا نشرب الشاى معا لقامت القيامة .

– الست من اقرب الناس اليه ؟ ان لم يثق بك لما جعلك حارسا على حياته وممتلكاته .

– هذه هي المشكلة التى لا يفهمها الآخرون يا حمزة. ان هذا الانسان الذى نصب من نفسه سيدا علينا كان لا شيء . لقد اخضعنا جميعا بقدرة قادر وجعلنا تحت سيطرته ، نحن الذين كنا نستنكف قبوله شريكا صغيرا في هذه المقاطعة . وها انه لم يكتف باذلالنا بجعلنا اتباع مرؤوسين له حسب ، بل جعلنا حراسا عاديين ببنادق خالية من العتاد الحقيقي لعدم اعتماده علينا اننا قدأسعدنا مجيئك الينا ، ولكن مما اثار استغرابنا ودهشتنا هو تسليمك أياه لبندقيتك ، انت الذى لا تجهل ماضيه !

تنهد حمزة وقال بالم

– أفهم كلامك جيدا يا صاحبي . كنت أعتقد أن الانسان يستطيع ان يعيش بسلام وبدون بندقية ، وكنت اريد ان افتح حقا صفحة جديدة مع هذا الرجل الذى صدقت كلامه ، ولكن لا يأس ، ان الرياح ستهب ذات يوم عكس ما يشتهيه صاحبنا.

– ثق يا حمزة ، اننى اثمن فيك روحك العالية ، ولعل وجودك بيننا يغير من الطبيعة الشرسة للسيد ، لذا ارجو ان تتحرك بهدؤ وتتحلى بالصبر والا فانه سينقلب عليك ذئبا لا يعرف الرحمة .

قال حمزه بصرامة

— انظر ، اذا كنت صادقا حقا في كلامك ، فارجوان تساعد نى في شيء واحد فقط ، اذ ذاك نستطيع ان نفيد بعضنا البعض فكلانا كما ترى لسنا مرغوبين من قبل السيد.

قال الحارس فورا وبارتياح

— هذا صحيح ، واننى مستعد ان اساعدك بكل امكاناتى .

— اريد ان أعرف حقيقة المعمل الذى يذهب اليه حليب كل هذه القطعان . اريد ان اراه بعيني .

قال الرجل هازاً راسه وهويصب قدحا آخر من الشاى

— يا صديقي ، هل تعلم كم هوخطير سؤالك هذا ؟

قال حمزة بثقة واعتداد

— اعلم ذلك كل المعرفة .

قال الحارس بسخرية

— لا ابدا يا حمزة ، لا تعرف ذلك

قال حمزة كما لوانه يعرف كل شيء

— لقد ارسل هذا السؤال احد هم الى التعذيب الوحشي والاهانات

قال الحارس كاتماً ضحكته

— لا يا صديقى لا ، ان الذى تقصده قد طرح ربع سؤالك . وأما الحقيقة فان العشرات قد سلخت جلودهم وهم احياء وسملت عيونهم وشوّهت جثثهم ولايعرف أحد بمصائرهم حتى الآن . والعملية مازالت مستمرة حتى هذه اللحظة.

شعر حمزة بقشعريرة في كيانه وقال :

— اذن لابد ان للمعمل سرا كبيرا

قال الحارس بحسرة

— أجل ، ان هذا السر هوالذى جعلني حارسا بسيطا بعد انْ كنت احد الاصحاب الحقيقيين لهذه المقاطعة

نهض حمزة قائلا

— لا استطيع ان اتحمل أكثر . يجب ان اواصل سيرى .

نهض الحارس بدوره ايضا ومدّ يده ليصافح حمزه بقوة

— ساريك المعمل ، بشرط ان تضمن لى بقاء هذا السر بيننا فقط ، لانك تعرف جيدا كيف ستكون عاقبة الامور.

(٧)

دخل الراعى الثاني منزله متسللا كاللص وبسرعة وهو يتنفس الصعداء لأن أحدا لم يلمحـه عند مغادرته منزل حمزة . وبعد فترة قصيرة حيث استعاد تنفسه الطبيعي ، سمع دقّات قوية على الباب أحس بها كما لوانها اطلاقات نارية تصيب قلبه . قال بصوت خافت وهو يحسّ كما لوانه يموت : « هذه هى نهايتي ، لقد وشوا بي . . » . أراد ان يقول شيئا ولكنه لم يستطع ، بيد انه شعر بنوع من الارتياح حين سمع صوت الراعى الاول وهو يصيح « أين أنت يا صد يقنا العزيز ؟ » وهنا استطاع ان يقول :

ــ أدخل ، الباب مفتوح

دخل الراعيان وعلامات البهجة مطبوعة على وجهيهما ، قالا بصوت واحد

ــ هيا تحرّك بسرعة ، اننا مدعوون لحفلة ضخمة أقامها السيّد ، مابالك وكأن الدنيا مقلوبة على راسك ؟

قال وهو يفرك عينيه متصنعاً الأ ستيقاظ من النوم

ــ لقد اخذتنى غفوة نوم فداهمتنى أحلام مزعجة .

قال الاول

ــ لقد جاءك خادم السيّد ليبلّغك بحضور الحفلة ، ولكنه لم يجدك فطلب الينا ان نبلغك بذلك . هيا البس احسن ملابسك .

قال الثالث

ــ سنتناول اليوم أشهى المأكولات ونشرب افخر المشروبات

قال الثانى

ــ وحمزة ؟ هل بلّغتموه ؟

قال الاول :

ــ ما شأنك وشأن حمزة ؟ هذه ليست مهمتنا . ان حمزة لا يكفّ عن خلق المشاكل واذا ظلّ راكبا راسه فانه سيدفع الثمن غاليا

قال الثانى

ــ ماهى مناسبة الحفلة ؟

قال الثالث

ــ لابد انها حفلة خاصة للّقاء بنا وبحث شئون المقاطعة ، خاصة واننا لم نلتق بالسيد منذ مدة طويلة .

قال الثاني

— ان أى بحث لشئون المقاطعة بدون حمزة لا يجوز، وانه يجب ان يحضر .

قال الاول باشمئزاز ممزوج بالاستهزاء :

— هذا الكلام اعرضه على السيد في الحفلة .

أضاف الثالث

— حتى يهينك بكلماته الجارحة . والآن هيا اسرع ، لا مجال للكلام الفارغ

عندما بلغوا صف الاشجار، سمح لهم الحارسان بالمرور. وبعد مسيرة قصيرة وصلوا بوابة القصر . كان الراعي الثاني لم ير هذا القصر من قبل . قال في نفسه وهو يتأمل الاعمدة العملاقة والزخارف الجميلة «يا الهي، متى بنى صاحبنا هذا القصر الفخم ؟» . أحسّ بالرهبة ، وتذكر أيامه في غرفة التعذيب التي لا يدرى من أى باب دخلها وشعر بموجة من الالم توخز ظهره . أيقظه البواب من شروده حين قال

— ارجو الانتظار في هذه الغرفة لحين مجئ أحد الاخوان لمرافقتكم الى مكان الحفلة .

دخلوا غرفة الانتظار. بدأ قلب الثانى يخفق بشدة، تذكر لقاءه بحمزة وفكّر، «ترى هل شاهدني أحد الحرّاس؟ هل سمع أحد كلامنا؟» وأحسّ بآثار السياط تلسع ظهره.

بعد فترة انتظار دامت اكثر من ساعة جاء أحد الحرّاس وطلب اليهم ان يتبعوه . مرّوا بعدة دهاليز وممرات أدتّ بهم الى حديقة كبيرة تنيرها أشرطة من الاضواء الملوّنة. وبعد ان اجتازوها دخلوا الى بناية ثانية فخمة تحيطها أنواع الاشجار. قادهم مرافقهم الى غرفة انتظار أخرى ، طالبا منهم الانتظار لحين مجيء حارس آخر. بعد فترة انتظار غير قصيرة ، قال الثالث بصوت خافت .

— لا بد انهم يريدون تجويعنا حتى نأكل بشهيّة .

أجاب الاول باشارات من يديه أن لا يتكلمّ أحد ، لأن هناك آذان اصطناعية فى الجدران . وخيّم عليهم الصمت :

بعد فترة انتظار طويلة جاء حارس متأنق وقال باسلوب مهذب

— اعتذر للتأخير ، فكما تعلمون فان المدعوين كثيرون جدا . وهناك وجهاء ذوو أهمية كبيرة جاءوا من اماكن بعيدة ومن بين الضيوف اجانب وصحفيين ، ورغم ان هؤلاء جاءوا للاطلاع على منجزات السيّد العظيمة في المقاطعة، فانه يجدُ عدم الاختلاط بهم ، لأن نواياهم قد تكون سيئة . وهناك هيئة ستقوم بترتيب الضيوف حسب الاهمية وأنتم ستكونون فى آخر الصف ، طبعا لأنكم أصحاب البيت . وتابع بعد ان فتح بابا سريا في مؤخرة الغرفة

— هل ترون هذا الصف من الرجال ؟ انهم فى طريقهم لمصافحة السيد لهذه المناسبة السعيدة . وعندما ينتهي الصف تلحقون انتم به وتسيرون وراء بعضكم البعض واما من منكم يكون في مقدمة مجموعتكم فهذه مسألة تخصكم انتم فقط . ان السيد لا يريد ان يتدخل أحد فى شئونكم الداخلية .

قال الاول وهو يراقب الصف السائر ببطء وراء الباب

— انا ساكون في المقدمة لانني اول راع له شرف الدخول لاول مرة الى مقاطعة السيد .

قال الثالث

لا بل انا الذى سيكون فى المقدمة ، لأنني املك أكبر القطعان فى المقاطعة باعتراف السيد نفسه .

قال الثاني بسخرية

— هل يمكنكما ان تقولا لى ماهي المناسبة التى نحتفل بها ؟

قال الثالث

— ولماذا تهمك المناسبة ؟ الا تكف عن اسئلتك الكثيرة ؟ المهم اننا نحتفل ويكفي ان نتمتع برؤية السيد ونتشرف بمصافحته ، فلولاه لكنا الآن نسرح بين السهول والجبال مثل الثعالب .

قال الاول

— لا مجال للجدال الآن ، وعلينا ان نتفق من يكون فى مقدمة مجموعتنا

قال الثالث :

— طبعا انا .

قال الاول

— لا بل انا .

قال الثانى وقد امتزجت علامات السخرية بالالم على وجهه

— حسما للنزاع أرى ان تسيرا جنبا الى جنب ، واما انا فسأسير ورآءكما

قالا بصوت واحد :

— هذا أحسن حل .

أضاف الثالث وهو يراقب صف الرجال المتحرك ببطء :

— ولكن ، انظرا ، انهم يسيرون وحدآنا وراء بعضهم البعض .

قال الثانى محاولا اقناعهما برايه

– هذا لا يهم ابدا ، ان السيّد سيجد في هذا الحل ايداعا كبيرا ، وسترون كيف انه سيرتاح لذلك .

قال الاول قافزا فى مكانه بفرحة

– هيا لنخرج ، ها هي نهاية الصف .

وعندما اتخذوا أماكنهم في نهاية الصف بالشكل الذى اتفقوا عليه مرّ بهم الرجل المتأنق قائلا :

– أرجو ان تنحنوا عند مصافحة السيد ، حتى يشعر الضيوف بمدى حبنا واحترامنا له .

قال الراعي الثانى ساخرا

– هل تعلمان ان مكانى أفضل بكثير من مكانيكما ؟ انني آخر رجل فى الصف . ان الصف حين يستدير الى الوراء للخروج من هذا المكان سأكون اول رجل في الصف كله .

أراد الثالث ان يقول شيئا ، بيد ان أحد الحرّاس ضرب على كتفه بقوة قائلا بلهجة احتقار :

– الكلام ممنوع احترموا انفسكم ايها الرعاة .

قال الراعي الثانى في نفسه وهو يراقب الرجال الذين يمرّون بالسيّد الواقف بغطرسة وكبرياء في مكان عال ومن ورائه مجموعة من الرجال المسلحين ، وهو يمدّ يده اليهم بدون اكتراث « يا الهي ، كيف استطاع هذا الشقي الحافى ان يتحول الى مالك مقاطعة ورجل ينحنى له هذا العدد الكبير من الناس ؟ » استغرق في تفكير عميق موازنا خطواته مع الخطوات البطيئة للآخرين . أحس بنفسه وضيعا ضئيلا كما لو ان أحدهم يركله بحذائه ويلقى به في هاوية عميقة . تحسرّ وتنهدّ بعمق ، وشعر بمزاجه يتكدر أكثر فأكثر ، رفع راسه ليجيل نظراته فى المكان . كانت صفوف طويلة من الموائد العامرة بانواع الماكولات والمشروبات تغطي ساحة الحديقة الواسعة وتنتهى عند منصة كبيرة أشبه بالمسرح ، تعتليها فرقة موسيقية تجهّز نفسها للعزف . وكانت هناك مجموعة من السيدّات المتأنقات لم يسبق له أن راى مثلهن من قبل وفجأة جمد في مكانه . وتوقف هنيهة ، وراح قلبه يخفق بشدة . اراد أن يصرخ أن يقول شيئا ، أن يقوم بحركة يجلب انتباه الجميع اليه ، ولكن شللا ما كان يقيّد كل جزء فى جسمه . وفرك عينية كما لو انه لا يصدق . أجل انه هو ، هو بالذات . . الرجل الذى كان جالسا وراء المكتب في الغرفة الخالية من النوافذ . انه اذن الساعد الايمن للسيد . والا كيف يمكنه الجلوس الى جانبه ومشاركته في الترحيب

بالناس بهذا الشكل ؟ ها ان بينه وبينهم امتار قليلة . كيف يمكنه ان يصافح يدا عذبّته طيلة اسبوع ؟ هل انا جنت ؟ هل انا احلم ؟ اين انا ؟ وفجأة توقف الصف . وترك السيّد مكانه مع حاشيته ، طالبا باشارة من يده البـدء بالاكل وبدات الفرقة الموسيقية بالعزف . بقى الرعاة الثلاثة وعدد من الرجال الذين لا يتجاوزون اصابع اليد الواحدة ممن لم يبلغوا منصة السيدّ حائرين في اماكنهم ، ينظرون الى بعضهم البعض باستغراب دون ان يتفوه أحد هم بكلمة .

قل الثالث باستغراب

— ألا يريد السيدّ أن يصافحنا ؟

قال الاول محاولا تبرير الموقف

— لقد تعب من كثرة هزّيده . المهم اننا نتمتع برؤيته ، الا يكفي هذا ؟

قال الثاني دون ان يظهر على وجهة الجامد اى اثر :

— اذكر ان المرحوم والدى قال لى ذات مرةّ : « ثمّة عيبان في المساهمة بالاعراس ، العيب الاول هو الدخول الى حفلة العرس والعيب الثانى هو الخروج من حفلة العرس »

— كلامك الفارغ لا يجلب لنا سوى النحس .

قال الاول والثالث بصوت واحد ! ثم راحا يجيلان عيونهما في انحاء المكان بحثا عن المقاعد الشاغرة .

جاء الحارس المتأنق الذى فتح لهم الباب السرى وقال باسلوبه المهذب

— أرجو العودة الى غرفة الانتظار لحين انتهاء الضيوف من الاكل ، حيث سيأتى حارس آخر لمرافقتكم الى المائدة المخصصة لكم .

قال الثاني بسخرية بعد ان انصرف الرجل

— حقا انهم يريدون تجويعنا حتى ناكل بشهية كبيرة . ان هذا النوع من الكرم لا يعرفه سوى السيّد .

(٨)

قال الحارس لحمزة بصوت خافت :

— سيبقى حصانك هنا ونذ هب نحن ، ولكن حذار ان تتكلم اذا سال أحد عن هويتنا . ان كلمات السر لنقاط الحراسة كلها عندى . ومن حسن الحظ أن البوابة الرئيسية مفتوحة هذه الليلة . والحرّاس كلهم مشغولون بالحفلة الضخمة التى أقامها السيدّ هذه الليلة .

استفسر حمزة باستغراب

— حفلة ضخمة ؟ وماهي المناسبة ؟

ضحك الحارس قائلا بسخرية

— لا يدرى الاّ اللّه ماهي المناسبة . انه يقوم باحياء مثل هذه الحفلات بين حين وآخر ليظهر نفوذه وقوته بين شيوخ المنطقة ، كما انه يستغل مثل هذه المناسبات المفتعلة ليهين البعض ويكرّم من يشاء .

قال حمزة

— عجيب أمر هذا الرجل ، انه لم ينحرف قيد شعرة عن سيرة والده .

قال الحارس مواصلا كلامه

— ومن عادته ايضا انه يتوّج مثل هذه الحفلات بالدم ، حيث يرسل افراد عصابته لاغتيال أحد خصومه الكثيرين ، متظاهرا فيما بعد انه كان مشغولا بحفلته ولم تكن لهاية علاقة بالحادث .

قال حمزة :

— حقا ان توبة الذئب في قتله انه سيلاقى نفس مصير والده الذى لم يمت ميتة طبيعية .

قال الحارس بيأس :

— ولكنه قوى يا حمزة وخبيث ، وهومثل الصلّ . لقد شدّ نا كلنا في غفلة من الزمن من ايدينا وارجلنا بخيوط سحرية لا نستطيع التخلص منها .

سكت الحارس هنيهة محدقا في النجوم المتلالئة في أعماق السماء اللانهائية المظلمة . وكان الصمت عميقا جدا ، ثم أضاف متأوه :

— يالها من مهنة تعسة هذه التى امارسها ، حارس المجزرة البشرية .

فال حمزة بدهشته المعهودة وبصوت عال :

— ماذا تقول ؟

أجاب الحارس كالمأخوذ وبصوت وآهن واضعا يمناه على كتف حمزة

— لا ترفع صوتك يا سيد حمزة . اننا الآن واقفان على حافة الجحيم . ان اى خطأ منّا سيوقعنا في اعماقه . ويالينتا نموت اذ ذاك ميتة طبيعية سريعة . سنمر بسلسلة من العذابات لا تنتهي . ستتحول الدقيقة الواحدة الى دهر . سيطلب الىّ ان اسمل عينيك ، ويطلب منك ان تبصق في وجهي ، هكذا يجب ان نعذب ونهين بعضنا البعض

امامهم . والآن هيا لأريك المعمل المزعوم ، ولكن اذا كانت اعصابك ضعيفة فعليك ان تعود الى منزلك .

قال حمزة بصرامة

ـ لا تخف يا صاحبي ، لقد دفنت العديد من ابنائي بيدى ثم انني لا اريد ان ارى كل شيء ، لأنني لست ممن يتمتعون برؤية المعذبين . كل ما في الأمر هو انني اريد أن أتأكد من الحقيقة .

ـ اننا سنسير بهذا الاتجاه ، واذا سمعت احدهم ينادى علينا فلا تتكلم ولا ترتبك . واعتبارا من هذه اللحظة لا تتكلم انت ، واما اسئلتك أو تعليقاتك فيمكن أن تؤجلها لحين عودتنا الى هذا المكان .

وسارا بمحاذاة سور من الاسمنت

ـ ان المعمل المزعوم يتكون من عدة قاعات طويلة معظمها تحت الارض وهى ترتبط ببعضها بابواب سرية . وهناك دهليز طويل يطوقها من كل الجوانب بواجهات زجاجية خاصة تطل على هذه القاعات ، بحيث ان السائر في هذا الدهليز يشاهد كل ما يجرى في داخلها ، في حين لا يمكن مشاهدة ما في الدهليز من داخل القاعة . ان هذه كلها كانت سراديب مظلمة تعود لقلعة قديمة تقع وراء هذا السور مباشرة كانت تعود لأحد الشيوخ الكبار . والقلعة لا يمكن رؤيتها الآبعد اجتياز السور . ويتمشى هو واصدقاؤه عادة داخل الدهليز يتمتع برؤية العمليات الجارية داخل القاعات . واحيانا يشرف بنفسه على تعذيب خصومه الشخصيين ممن لهم وزن كبير . والويل لمن يعذ به بنفسه . كانا يواصلان السير بحذر وبخطوات وئيدة . وكان الظلام عميقا وكثيفا وكانت الاصوات البعيدة المختلطة بالموسيقى تأتى من مكان الحفلة البعيد وتشق الصمت . وثمة مصابيح ملوّنة خافتة تتلألاء عبرمسافات متباعدة .

قال الحارس بعد سكوت طويل :

ـ ان البوّابة التي دخلت منها مع قطيعك ، ليست هي البوّابة الرسمية لدولة السيّد . هل ترى تلك الأبواب الثلاثة ؟ هناك تنتصب البوّابة الرسمية ، حيث ترفرف فوقها راية السيد التى تتوسطها بقعة دم .

بدأت علامات الاستفهام تتحرك داخل راس حمزة . وراحت الاسئلة تتبلور فيه دون ان يستطيع النطق بها . دولة السيد ؟ . راية السيد ؟ البوّابة الرسمية ؟

قال الحارس بغتة

ـ أنا اعرف ان اسئلة كثيرة تدور في راسك . انك ستجيب عليها فيما بعد بنفسك ،

ولكن ما احب ان اقوله لك هو ان السيدّ يعتبر هذا المكان دولته هو ، هو بالذات . هذه حقيقة لا يدركها كثيرون مع الاسف . وكل من يقول غير ذلك يقاد الى سراديب القلعة . هل تدرى أنه كان يبحث عنك ليلا ونهارا ؟ وأنت كنت شغله الشاغل ؟ كان يخاف من بندقيتك خوف الفارة من القط ومنذ ان سلّمته بندقيتك ينام هادئ البال ، بيد ان ما يزعجه حتى الآن هوانك لا تقرّ بحقيقة كون هذه الدولة والراية تعودان له ، ولكنه يكتم غضبه امامك لأسباب عديدة .

كانت افكار كثيرة تزدحم فى راس حمزة . اراد ان يقول شيئا رغم الخطر الكبير ، ولكنه استكن الى عقله ووجد انه اذا انجر وراء عاطفته فان العاقبة ستكون وخيمة . قال فى نفسه « لا بد ان استعيد بندقيتى ، وسأفعل ذلك مهما كان الثمن . . »

قال الحارس بصوت خافت أقرب الى الهمس :

ــ لقد اقتربنا من المكان . ان مفاتيح الدهليز عندى . سنقوم بجولة في الممرات وسترى بام عينك ما يجرى في هذه السراديب الرطبة ، وبالمناسبة فان العمليات مكثفة هذه الليلة. اللّه وحده يعلم كم من الاجساد البشرية ستلقى هذه الليلة في حوض النار السائلة ، حيث يتلاشى الانسان في اسرع من لمح البصر ، وهذا القسم هوآخر مرحلة لمن لا يريد الرضوخ لدولة السيد . وفي الوقت الذى يكون هو مهيئا للمجيء الى الدهليز مع رجاله للتمتع برؤية العمليات بعد انتهاء الحفلة ، نكون نحن قد انتهينا من جولتنا . اؤكد مرة اخرى ان تضبط أعصابك . حتى آهة صغيرة لا يجوزأن تطلقها والاّ سيكون مصيرنا الموت بابشع وسيلة ، لأن هناك أدوات ارسال دقيقة موزعة في كل مكان تنقل ما يدور بين السجناء .

انعطفا الى طريق جانبي أدّى بهما الى جدار عال مصبوب من الاسمنت . سارا بمحاذاته . وبعد مسيرة غير قصيرة التفّا حوله ، ثم دخلا غابة من الاشجار الكثيفة . ووقفا امام لوح من المرمر اشبه بشواهد القبور. بدا لحمزة انه سبق ان مرّ بهذا المكان . وقف امام المرمر ، متى كان ذلك يا ترى ؟ انه متاكد بانه يعرف هذا المكان . . وراح يبحث في ذاكرته عن السبب الذى جاء من اجله الى هنا وعرف ان ذلك كان قبل مدة طويلة ، طويلة جدا ، وربما انه حلم بهذا المكان وها ان حلمه يتحقق ، وجلس القرفضاء محاولا قراءة الكتابة المنقوشة على المرمر. عرف الحارس ما يبغيه حمزة فجلس هو الآخر القرفصاء شاعلا عود ثقاب أمام اللوح مباشرة ، وهزّ حمزة راسه وهويمرر عينيه الحادتين بالكتابة السوداء المنقوشة على المرمر الابيض الجليدى

هنا مقبرة الرجال الذين يموتون
بلا أسماء ،
بلا شهادة وفاة ،
تواريخ الوفاة هنا « صفر » ،
كل شيء يتم هنا في الليل ،
الدفن في النهار ممنوع

تسمرّ في مكانه لبضع لحظات ، ثم تذكّر بغتة متى راى هذا اللوح المرمرى . كان ذلك عندما كان طفلا صغيرا ، حيث جاء الى هنا للبحث عن جثة والده التى لم يعثر عليها . وانحدرت من عينيه دمعتان . نهض من مكانه بقوّة وعزيمة لم يعهد بها من قبل وهويقول في نفسه « لقد سلّمت بندقيتك الى قاتل ابيك يـا حمزة ، فاذا لم تقم بعمل جبار ضد السّيد فان اللعنة ستلاحقك الى الابد . »

مدّ الحارس يده بخفّة الى مكان تحت المرمر فظهر سلّم يضيؤه نور باهت يؤدى الى سرداب عميق . قـال الحارس أننا حين ندخل الممر فيجب ان انقطع انا الآخر عن الكلام . وعند اول انعطافة سنمر بهيكـل عظمي معلـق لأحد ضحايـاه يجرّب به أعصاب من يرشحهم للعمل فى الجحيم كما يسميه هو. ان له هوايات أغرب بكثير من تعليق الهياكل العظمية على الجدران .

(٩)

بعد أن رحبّ السيد بضيوفه الكبار ، مرّ بالآخرين بسرعة موزعا عليهم ابتساماته التى يصطنعها بصعوبة كبيرة ، فمنذ ان تخلص من بؤسه وتشرده وكوّن لنفسه مقاطعة ورايئ ، يقف ساعات أمام المرآة ليتعلم فن كيفية الابتسام . فقد ولدته امه متجهمـا عبوسا بملامح قاسية متشنجة وبوجه يكسوه جلد الحرباء . كان لا يجد سعادته وراحته الاّ عند الجلوس مع أفراد عصابته والتحدث اليهم. فهو حين يجتمع بهم ينزع قناعه ويعلقه الى جانب اقنعته الكثيرة المعلقة في غرفته الخاصة التى لا يلتقي فيها الاّبهـم وحدهم . وبالاضافة الى اقنعته التى تمثل وجوه مختلفة يملك عشرات الاقنعة التى تمثل وجهه هو فقد التقطت له ذات يوم صورة وهو يقف مع ثلاثين من افراد عصابته وهم يضعون على وجوههم قناع السيّد كما يقول هو. وهناك نسخة كبيرة من الصورة معلقة فى الغرفة الخاصة، وقد سبق له ان عرض الصورة على بعض اصدقـائه وطلب اليهم ان يشخصوه هوفلم يتمكنوا . واحيانا — بدلا من ان يذهب هو — يرسل احد

رجاله بعد ان يضع على وجهه القناع ، ليمثله هو ، ولا يشك الطرف الآخر في الامر ولا يعرف انه قابل نسخة اخرى من السيد .

كان ينظر اليه أفراد حاشيته باعجاب وزهو هما فوق اى نوع من العواطف الاخرى ، ويضفون عليه الالقاب المختلفة التى يجد هو فيها لذتّه الوحيدة . انه المعلم وهم التلاميذ ، انه القائد وهم الجنود ، هو الصنم وهم السدنة . اذا قال لهم ان الشمس لا تشرق غدا ، هزّوا رؤوسهم جميعا بالموافقة وقالوا ان الشمس لا تشرق غدا اذا طلب الى احدهم ان يقتل أخاه ، نفّذ الامر دون ان يسال لماذا ؟

ذات يوم أصاب سؤ الحظ احد افراد عصابته فشاء سؤ حظه ان يتمرد على سيده ووليّ نعمته ، جلبه الى غرفته الخاصة وراح يستجوبه امام أفراد حاشيته ، وبعد ان أذاقه مر العذاب قطع انفه واذنيه ثم اطلق النار على أطرافه حتى يموت ببطء ، واما هم فكانوا يبصقون في وجهه ويركلونه في كل جزء من جسمه .

ألقى نظرة اخيرة على مكان الحفل . كان الجميع قد سكروا . التفت الى مساعده الاول وقال

— أحسّ بالملل مع هؤلاء . احب ان نذهب الى الغرفة الخاصة ونتدردش مع الاخوان .

قال مساعده منحنيا باحترام

— انهم ينتظرون بفارغ الصبر . انهم لم يتنعموا برؤيتك طيلة هذا اليوم .

قال وهو ينظر الى المحتفلين

— انظر كيف يتبارون في الاكل والشرب .. ان هؤلاء نستطيع ان نشتريهم جميعا . ما اعظم قوة المال وما اقوى سحر الذهب . انك تستطيع ان تصل بفضل المال والقوة الى كل ما تبتغيه .

قال المساعد :

— سيدى ، انه لأنانية مقيتة منى ان اتمتع وحدى بهذه الكلمات الذهبية الصادرة من فمك . لماذا لا نذهب الى الغرفة الخاصة وترتاح بعد هذا الارهاق الطويل ونتمتعا جميعا بكلماتك الحكيمه ؟

قال بغطرسته المعهودة

— انا فعلا متعب ، ولا اجد الراحة الاّ في الغرفة الخاصة . هيا بنا .

واضاف بعد فترة تفكير قصيرة

— على فكرة ، ما هورايك بالحفلة ؟

– رائعة يا سيدى . كان الجميع ينظرون اليك مسحورين ، وكنت تطل عليهم بهيبتك كمالو انك جبل هائل تحدى الزمن لآلآف السنين وما زال يتحداه بكل قوة وجبروت .

– لقد تعلمتم كلكم على الكلام الجيد . ظاهرة حسنة .

قال ذلك السيد وأحس براحة تسربت الى كل خلايا جسمه ، رافعة اياه الى ما وراء السحاب فشعر بقدميه لا تمسان الارض ، ولكنه سرعان ما هبط على الارض وارتطم بها بقوة حين تذكر حمزة ، فقال بمزاج كدر :

– وحمزة ؟ هل كان موجودا ؟

قال المساعد بارتباك

– كلا يا سيدى . لقد قلت بنفسك اننا يجب ان نهمله فهو لا زال وقحا لا يتنازل عن غطرسته الفارغة .

قال بلهجة عتاب ممزوجة باسف

– كنت اعتقد انكم دعوتموه . لقد أهنا الرعاة الآخرين على حسابه ونجا هو من الاهانه .

فال المساعد وهو يعظ شفته

– بسيطة يا سيدى ، سنعلمه على الطاعة والرضوخ . انه بحاجة الى أكثر من اهانة .

– لكننا يجب ان نكون حذرين معه ، لأنه يستطيع ان يخلق لنا المتاعب .

وبعد ان سارا قليلا قال السيد بشرود

– ان بيننا وبين حمزة منازعات قديمة. ان هذه المقاطعة التى نتمتع نحن بخيراتها كان من الممكن ان تكون له ، ولذلك فمن المستحيل ان ينسى الماضي . فما قبوله لدعوتنا وتسليمه البندقية بسهولة الا خدعة لئيمة من جانبه

قال الحارس بثقة عالية بالنفس

– سيدى ، لقد تغلبنا بفضل حكمتك وقوتك على من هو اقوى بكثير من حمزة . .

– اعرف ذلك ، ولكن حمزة يختلف عن كل اولئك . انه خطر علينا في كل الحالات فسواء عاش معنا في المقاطعة او هجرنا فانه لا يكف عن خلق المتاعب .

– نقتله ونتخلص منه .

– كلا . . هذه الطريقة ستخلق لنا متاعب لن تنتهي ثم اننا سنخسر كل الرعاة الذين نحاول جرهم الى داخل المقاطعة . اننا لا نستطيع مواصلة حياتنا المرفهة داخل المقاطعة بدون هؤلاء الرعاة وقطعانهم

— الم تفكر يا سيدى في طريقة تخلصنا من هذا المدعو حمزة ؟ انك لم تترك كتابا دون ان تقرأه

قال باعتداد :

— اننا يجب ان نجرده من قطيعه وحصانه وبعد ذلك فهو حرّ في ان يعيش معنا اويتركنا ، واما كيف نرسم الخطة لذلك فهذا ما سنبحثه فى الغرفة الخاصة . .

(١٠)

وقف الحارس ممسكا بالهيكل العظمي ودافعا اياه صوب الجدار فاسحا الطريق امام حمزة ، واومأ اليه براسه ان يمر . في هذه اللحظة أحسّ حمزة في اعماقه بهاتف يدعوه للرجوع الى قطيعه وحصانه فأومأ هوالآخر الى صاحبه باشارات من يديه أنه لا يريد مواصلة السير ، فهزّ هذا راسه موضّحا له انه افتهم قصده فاشار له ما معناه اننا قبل ان نترك هذا المكان احب ان اريك صورة بسيطة لما يجرى في السراديب ، فطلب اليه باشارة من يده ان ينظر في كوة تقع خلف الهيكل العظمي مباشرة . ومدّ حمزة راسه بفضول كان ثمة نفق طويل تتلاشى نهايته فى الظلام ، وقد صلبت على جانبي النفق أجساد لرجال عراة تمتد مثل اعمدة التلفون . وفي منتصف النفق مجرى تسيل عبره الدماء ببطء .

وعندما تركا النفق قال الحارس بهمس

— ان مارايته لا شيء .

لم يتكلم حمزة ، بل راح يحث خطاه وهو حاقد على كل شيء . وافترقا . ذهب الحارس باتجاه نقطة حراسته ، وحمزة باتجاه الحصان . كان هاجس فطرى قد اومأ اليه ان شيئا ما قد وقع سواء مع الحصان او مع القطيع ، وعندما لمح حصانه الاصهب في جوف الظلام وهو يضرب الارض بحوافره تعبيرا عن فرحته لعودة ربّه ، تنفس حمزة الصعداء . وطوّق رقبته العالية بساعديه . واحس ان الحصان لوكان بامكانه الكلام لقال له أشياء كثيرة في هذه اللحظة ، وهمس حمزة في اذن الحصان « أعرف انك تلومني لوجودنا في هذا المكان ، وانك منذ تواجدنا داخل هذه الاسيجة حرّمت من صهيلك الذى ترددة الوديان والجبال ، لا تخف يا عزيزى ، سنخرج من هذا المكان » . وعندما قفز حمزة على ظهر الحصان ، أراد هذا أن يطلق صهيلا ، ولكنه كبح جماح رغبته خوفا من ان يجلب الاذى على صاحبه في سكون هذا الليل الغامض .

عرف حمزة ان الاقدار تخفي له الكثير من المصائب ، وتذكر اللحظة التى عبرفيها البوابة ، فتحسس بصورة لا ارادية خنجره ثم أطلق آهة مسموعة حين تذكر بندقيته وقال في نفسه « كان ينبغي عليّ ان لا افعل ذلك كان ذلك غباءا كبيرا منى ، والآن ماذا املك ؟ خنجرا وسوطا ، لا باس ، ان الرجل الحقيقى اذا صمم على شيء فيمكنه ان يستعين حتى بعصا . . » . وراح يتامل النجوم المتلألئة في الظلام العميق . وراح يحث حصانه على الخبب باتجاه منزله في الطرف الآخر من المقاطعة . وكانت اشرطة الاضواء الملوّنة الباهتة تترآءى من خلف صفوف الاشجار الداكنة . وترآءى له النفق الطويل والرجال العراة الملطخين بالدم والمصلوبين على جدران النفق ، وتذكر التمثال الذى رآه لاول مرة في حياته في كنيسة احدى القرى المسيحيـــة القريبـــة من نينوى ، وكان ان قال له القس ان هذا هوتمثال السيد المسيح مصلوبا وهو يتحمل آلام كل البشرية ، ومنذ ذلك اليوم سمع الكثير عن السيد المسيح الذى كان يدير خده الايمن لمن يضربـه على الايسر . وعندمـا التقى القس ذات مرة وصـــف له شجاعـــة المسيح وكيف انه كان يتحمل العذاب دون ان يتأوه . وعندما ساله حمزة عن سبب عدم لجوئه الى القوة ضد أعدائه ، ابتسم القس قائلا « كلا يا حمزة ، كان المسيح روحا مقدسة ونبيا جاء يعلم الناس على المحبة والسلام والصفح والمسامحة ، فكيف بانسان يؤمن بهذه المثل ان يمسك بيده الخنجر ويطعن أخيه الانسان ؟ » وتحسس حمزة خنجره وقبض عليه بقوة وقال : لا يا عزيزى القس ان نصائحك لا تصلح لهذا الزمان. وأحس مرة اخرى بالحقد يكاد يفجّر شرايينه « ايه يا حمزة ، كل هذا يجرى تحت الارض وانت لا تعرف به ؟ كل ذلك يحدث على مقربة امتارمنك وانت تدخل المقاطعة هادئ البال وكأن شيئا لم يكن ؟ ليس هذا حسب ، بل تسلم بندقيتك الى سيد المقاطعة ، سلاحك الوحيد الذى كان يحميك من الذئاب الشرسة ايه يا حمزة ، كم من مصيبة مررت بها ، وكم من مرة كبا فيها حصانك ثم عالجته برفق وواصلتما سيركما وانتما تحافظان على القطيع محافظتكما على حدقات عينيكما كم من مرة هجمت الذئاب الشرسة على القطيع وابادت نصفها والآن ماذا ستفعل يا حمزة ؟ انك لا شك مقبل على عمل حاسم ، فليس من المعقول أن تطبق هنا نصائح القس وتتحول كالرعاة الآخرين الى لاعق صحون السيد . اذن ينبغي عليك الخروج من هنا ، ولكن كيف ستخرج من هنا ؟ كما ان خروجك من هنا ، هذا اذا خرجت سالما ، يعنى اعلان الحرب بينك وبين السيد ، والا فلماذا النفق الطويل والاجساد المصلوبة على الجدران ؟ انهم اولئك الرعاة الذين لا يريدون دخول المقاطعة . » . وأطلق آهة أخرى :

« يا الهي ، ها اننى الدغ من جحر مرتين . لقد كانت اللدغة هذه المرة أشدّ وأعظم من اى لدغة اخرى ولكننى اعرف كيف اعلن حربى عليك ايها السيّد اللئيم . . »

بدآ له كما لو ان الحصان هو الآخر يفكرمعه . كان قلقا يلتفت يمنة ويسرة ، تارة يسرع في خطاه واخرى يبطيء : « ماذا فعلت بهذا الحصان الاصهب الصامت يا حمزة وبهذا القطيع الذى هومصدر الخير والعطاء ؟ ان القضية ان كانت تكمن في انقاذ جلدك وحسب ، لعبرت السياج بسهولة وتركت الحصان والقطيع لقمة سائغة لهذا السيد الشره الذى لن تشبعه أموال الدنيا كلها كلا ، المسألة أكثرمن أن تفلت بمجرد جلدك . . انك جزء من الحصان الاصهب ، والحصان الاصهب جزء منك . وكلا كما جزء من القطيع ، والقطيع جزء منكما انكم ثلاثة أشياء تكوّن في الاساس شيئا واحدا . انكم ثلاثتكم مركّب واحد لا يمكن تجزئته . انك اذن يجب أن تحافظ على الحصان والقطيع محافظتك على حدقة عينك . ولكن كيف ستحافظ عليهما ؟ انك تملك سوطا وخنجرا ، وأما السيد فيملك كل شيء ، ولكن هناك شيء واحد أنقذك دوما من المآزق التي وقعت فيها ألا وهو ارادتك وتصميمك

وصمم في قرارة نفسه ان يترك هذا المكان الذى يحسّ بهوائه المشبع بالسم والنتانة والجريمة يكاد يخنقه . وتضاربت الافكار في رأسه وهو يفكر في أسلم طريقة ينقذ بها القطيع دون أن يحسّ به الحراس ، وكان خلال جولاته المستمرة حول السور وجد ثغرات عديدة يمكن عبورها بسهولة ، كان قد احدثها بلا شك بعض اللصوص أو رجال السيد نفسه ، وتنفس الصعداء ولكن سرعان ما تكدر مزاجه عندما تذكر كلاب الحراسة المدرّبة التي تقوم باداء واجبات الدورية برفقة الحراس بين آن وآخر ، هذه الكلاب الشرسة التى لا شك انها لعقت دماء الرجال المصلوبين على جدران النفق السرى . وسرت قشعريرة في جسمه عندما مرّت بذهنه صورة بشعة الكلاب وهى تقطع أوصال الاغنام وتنهش لحمها بانيابها ومخالبها الحادة .

وعندما اقترب من المنزل ، وقف الحصان بغتة في مكانه وراح يضرب الارض بحوافره بقوة وعصبية غريبتين ثم أطلق صهيلا متواصلا شقّ سكون الليل ، وفي هذه اللحظة تحرك القطيع كتلة وا حدة وانطلقت تدور حول نفسها مثل موجة حلزونية وسط دوّامة . وأطلق حمزة صيحة تزامن معها صهيل آخر للحصان الاصهب « هيه . . من هناك ؟ » وهجم مثل الصاعقة على شبحين ، كانآ يتحركان بين القطيع فراح يلهبهما بسوطه . قفز أحد هما عليه بخفة القط الوحشي فاوقعه من على ظهر الحصان . سحب حمزة خنجره محاولا طعن الرجل الذى فلت من بين يديه كسمكة . أراد حمزة ان

يلحق به ، ولكنه عدل عن فكرته ممسكا بقوة بزمام الحصان ، وعندما أراد القفز على ظهره أحسّ باحد ساقيه لا يطاوعه ، بيد أنه أعاد الكرة بشكل آخر ولعدة مرات الى ان استطاع ان يتخذ مكانه على ظهره . اذ ذاك أحسّ بشيء لزج حار يسيل عبركتفه الايمن . ودار حول القطيع دورة سريعة ، فلما لمّ شمله ، وجهه باتجاه ثغرة كبيرة في السياج . كان يخشى ان يفاجئه الشبحان في أى لحظة ، لذلك كان يمسك بيمناه الخنجر وبيسراه الزمام . وقبل ان يبلغ السياج أحسّ بضربة قوية على قفاه أفقدته توازنه ، فتراءت له آلاف النجوم وهى تتحرك متداخلة فى بقع بيضاء تتصاعد مثل حلقات متلاحقة تتلاشى فى اللانهاية . ولما كان رأسه قد أعتاد على تلقى مثل هذه الضربات منذ طفولته ، لذلك فانها لم تفقده صوابه ، وأحسّ هذه المرة بشيء لزج آخر حار ايضا يسيل عبر رقبته . قال في نفسه « ان هذه الضربة يجب أن لا تلهينى عن انقاذ القطيع » . ولما كان القطيع قد تفرق مرّة أخرى ، لذا أعاد دورته حولـه . وعندما أقترب اكبر عدد ممكن منه من السياج ، لمح أكثر من شبحين وبغتة انطلقت مجموعة من الكلاب وهي تنبح بهستيرية . وتفرّق القطيع مرة اخرى . ودون أن يأبه بالكلاب ، أعاد دورة اخرى حول القطيع بسرعة لم يعهدها من قبل ، وهاج الحصان ، واطلق حمزة ندآء آت للقطيع بأن يتبعه ، وقفز الحصان عبر ثغرة السياج موسعا اياها ، فتبعه القطيع . وكان حمزة يسمع بألم ثغاء الاغنام التى كانت تشرف على الموت سواء تحت هجمات الكلاب ام عند عبور السياج . وسمع صوتا غاضبا عاليا يقول : « لقد ظهرت على حقيقتك يا حمزة انتظر ، ساقص جناحك حتى اذا انقلبت طائراً . »

قال حمزة من وراء السياج بصوت أجش : « قل لسيّدك اللئيم أن يستعدّ للمعركة الفاصلة يا أبن الزانية ، وسوف أجعل من سراد يبكم الدموية قبورا لكم . »

وأطبق الصمت على كل شيء ، وبعد مسيرة غير قصيرة بلغوا الجبل . وكـان الخيط الابيض قد بدأ يشق الظلام من جهة الشرق . ترجل حمزة . وكان الحصان المتعب يتصبب عرقاً ووغفاً . وكان الدم قد تجمد على كتفـه ورقبتـه . وهرع الى القطيع الذى بدأ يراه بوضوح تحت أنوار الشفق الاولى ، وبنظرة واحدة عرف ان نصفه قد زال أو لم يستطع الخروج من المقاطعة . وكانت البقية الباقيـة قد تماسكت فى كتلة واحدة بيضاء كما لوانها سحابة حطت على الارض ، تاركة مكانها في أعالى السماء . لم تفاجئه النتيجة . كانت توقعاته أسوأ بكثير . وراح يداوى الاغنام المجروحة بطريقته البدائية وهو يشعر فى أعماقه براحة واطمئنان تكتنفهما غشاوة من الحزن ،

وتذكر اليوم الذى داهم فيه اللصوص قطيعه فلم يستطع ان ينقذ سوى عدد ضئيل جدا لا يتجاوز اصابع اليدين ، ورغم ذلك فان القطيع قد تكاثر. وقرر ان يزور الشايب ، رغم ان مواجهته ستكون مؤلمة . وبعد ذلك سيلتقي بالرعاة المتفرقين هنا وهناك ويقص عليهم حكاية المقاطعة ومراعيها التى تبدو جميلة جدا من بعيد . ثم راح يتكلم مع نفسه بصوت مسموع وبصورة لا ارادية «كلا . ان هذا ليس خيالا ما افكر فيه . »

كان الظلام يتلاشى بسرعة امام الشفق الوردى . وعندما اشرقت الشمس نزع قميصه وعرض جروحه للشمس ثم أشعل قطعة قماش راح يغطى برمادها الساخن جروحه . كانت الصخور جرداء قاسية تتخللها شجيرات البلوط والاشواك . وكان عليه ان يقطع مسافة عدة ساعات الى ان يصل الى ينابيع المياه والكلأ ، وقدر انه قبل حلول قيض الظهيرة سيكون قد بلغ المكان .

(١١)

التفت حمزة الى الشيخ الذى كانت علامات الغضب ما زالت بادية على وجهه المهيب وقد جلس على صخرة كبيرة متكئا على عصاه ، كما لو أنه تمثال من العهود الغابرة بقى شامخا فى مكانه دون ان تهزه عوامل الزمن . وكان يجيل عينيه الحادتين الشبيهتين بعيني صقر تحت حاجبين كثيفين بلون الصوف ، بين القطيع والحصان . أراد حمزة ان يقول أى شيء حتى يقطع الصمت المخيم عليهما ولكن لسانه لم يسعفه . كان يعرف ان الشيخ يفكر بعمق ، ويقول في قرارة نفسه اشياء كثيرة لا يعلم محتواها الا الله ، ولا شك انه يرسل شتائمه البذيئة بدون حساب ، ومهما يكن فانه لا ولن يغضب عليه . وكان حمزه يحس بضميره يؤنبه بشكل موخز ، ولا سيما لأنه لم يستشر الشيخ الذى رباه منذ صباه ، الامر الذى كان يستثير غضب الشيخ . ورأى ان الكلام لا جدوى منه في هذا الجو المكهرب . انه يجب ان يقوم بعمل يريح ضميره وضمير الشيخ . كان يعرف كل خفايا واسرار الشيخ طريقة تفكيره ومعالجته للامور ومواقع قوته وضعفه . كان لا يناديه بأبى رغم انه كان ابوه الروحى ولا يناديه بجدى رغم انه كان جده الحقيقى من ابيه . كان يناديه بالشايب ويتعاملان مع بعضهما كصديقين حميمين يفرق بينهما عامل السن حسب . وكان الشيخ يفاجئه احيانا بضربة من عصاه على مؤخرته ، وكانت الضربة عادة غير موجعة بيد انه كان يتظاهر كما لولدغته حية . وكان الشيخ يفرح ويقهقه مثل صبي صغير .

وعندما عاد حمزة ظهيرة هذا اليوم الى القرية ، عرف الشيخ فورا ان حادثا ما قد حصل له ، فلم يأبه للنقص الكبير في القطيع ، لأنه قد اعتاد على ذلك ، ثم انه وجد ذلك شيئا طبيعيا لراع يجوب البرارى والجبال ليلا ونهارا ، فراح يعالج جروح حمزة وجروح الاغنام بعناية كبيرة . وكان قد اعتاد على مثل هذه المواقف . وفي كل مرة كان يحدثه حمزة عن مغامراته والمشاكل التى صادفته حاملا له ايضا تحيات أصدقائه القدامى الذين كان يزورهم عند مروره بالبادية وبساتين النخيل والاهوار ومناطق السبخ المالحة . كان الشيخ يقول له دائما ، ان من يخاف الخسائر ويخاف من اللصوص والذئاب فعلية أن لا يمارس مهنة الرعي ، بل خيرله ان يعمل طبّاخا في مطبخ الاقطاعي . ولكن الشيء الذى أذهل الشيخ هذه المرة هو اختفاء البندقية والملامح الغريبة التى تكتسي وجه حمزة ، فلم يبادر بتوجيه السؤال ، بل راح يعالج الجروح ويقدم العلف للقطيع ويمسّد الحصان بفرشاته غاسلا اياه برفق على النبع ، ومنتظرا مبادرة حمزة لرواية ما حدث له . وكان حمزة يعرف ما يجول في راس الشيخ . كان يعرف ان الشايب ينتظرمنه جوابا . حاول عدة مرات ان يفاتحه بالموضوع ، ولكنه كان يحس بتيار كهربائي يمر بجسده ويشله عن الحركة والتحدث فى هذا الموضوع كان يضطرب الى درجة انه لا يستطيع النطق. واخيرا رآى ان الوقت قد حان ، ثم ان الشايب اذا بادر هو بالسؤال فعند ذلك لن يتخلّص من لسانه الطويل. وتقدم منه ، حيث كان قد انتهى لتوه من رعاية القطيع وغسل الحصان فجلس على الصخرة متكئا على عصاه وهو مستغرق في تاملاته . وعند ما لمحه هذا قادما باتجاهه وهومنكّص الراس ، عرف الشايب انه جاء للتحدث فى الموضوع فتنفس الصعداء مدمدما بصوت غير مسموع « وأخيرا . »

وقف حمزة أمامه بخشوع وصمت كما لوانه يريد ان يؤدى طقوس العبادة ، وكان منكس الراس يحدق في الارض . وكان ظلّه الطويل يمتد الى الجانب الثانى من الوادى . وقف لعدة دقائق دون ان يفتح فمه . اعتدل الشيخ فى مكانه وراح يضرب الارض امامه ضربات متلاحقة عصبية خفيفة ، ثم رفع راسه محدقا فى وجه حمزة

— تكلّم يا ولدى . لا تخجل . اننى اعرف انك قد اقترفت ذنبا . المهم انك عدّت محافظا على كرامتك . . البندقية تعوّض والقطيع يعوّض ، كل شيء يعوّض وأما الكرامة ، فلا تكلم يا ولدى . . لا تخجل . .

للمؤلف

١ ــ الاعصار (مجموعة قصص)	الطبعة الاولى	بغداد	١٩٦٢
	الطبعة الثانية	ميلانو	١٩٨٤
٢ ــ رجل في كل مكان (رواية)	الطبعة الاولى	بيروت	١٩٧٤
	الطبعة الثانية	ميلانو	١٩٨٤
٣ ــ الزنابق التى لا تموت	الطبعة الاولي	الموصل	١٩٧٨
(قصص)	الطبعة الثانية	ميلانو	١٩٨٤
٤ ــ رحلة الى بابل القديمة		دمشق	١٩٨٤
(ترجمة عن الالمانية)			

تحت الطبع

أطول عام في حياة وادى كفرآن رواية طويلة